

الجزء العاشر

وَعَلَّمُوا أَعْمَاءَ غَنَمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى
 وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى
 عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِي الْجُمُعَانِ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذَا أَنْتُمْ
 بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكِبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَوْ
 تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، لِيَهْلِكَ
 مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)
 إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنْتَازِعْتُمْ
 فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ
 يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّبُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ، لِيَقْضِيَ
 اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

الغُنْمُ والمغنم والغنيمة : ما يناله الإنسان ويظفر به بلا مقابل مادي ، وقولهم الغُرْمُ بالغنم : أى يقابل به ، والفيء : كل ما صار إلى المسلمين من أموال أهل الشرك بعد أن تضع الحرب أوزارها ، وتصير الدار دار إسلام ، وهو لكافة المسلمين ، وليس فيه الخمس ، والنفل : ما يحصل للإنسان من الغنيمة قبل قسمتها .

المعنى الجملى

لما أمر الله بقتال الكفار المعتدين الذين كانوا يفتنون المسلمين عن دينهم حتى لا تكون فتنة ، ووعد المؤمنين بالنصر عليهم ، وكان ذلك مستتبعا لأخذ الغنائم منهم - ناسب أن يذكر بعده ما يرضيه سبحانه في قسمة الغنائم على الوجه الذى شرعه . والجمهور على أن هذه الآية نزلت في غزوة بدر ، وعلى أن ابتداء فرض قسمة الغنائم كان بها .

الإيضاح

(واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة ، وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) أى واعلموا أيها المؤمنون أن كل ما غنمتموه من الكفار الحاربين ، فاجعلوا أولا خمسة لله تعالى ينفق فيما يرضيه من مصالح الدين العامة كالدعوة للإسلام ، وإقامة شعائره وعمارة الكعبة وكسوتها ، ثم أعطوا للرسول منه كفايته لنفسه ونسائه مدة سنة ، ثم أعطوا منه ذوى القربى من أهله وعشيرته

نسباً وولاء ، وقد خص الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بيني هاشم وبنى أخيه
المطلب المساميين ، دون بنى عبد شمس ونوفل ، ثم المحتاجين من سائر المساميين ، وهم
اليتامى والمساكين وابن السبيل .

روى البخارى عن مطعم بن جبير (من بنى نوفل) قال : مشيت أنا وعثمان
ابن عفان (من بنى عبد شمس) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا : يا رسول
الله أعطيت بنى المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة . فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد .

وسرّ هذا أن قريشا لما كتبت الصحيفة وأخرجت بنى هاشم من مكة
وحصرتهم فى الشعب لحمايتهم له صلى الله عليه وسلم دخل معهم فيه بنو المطلب ولم
يدخل بنو عبد شمس ولا بنو نوفل - إلى ما كان من عداوة بنى أمية بن عبد شمس
لبنى هاشم فى الجاهلية والإسلام ، فقد ظل أبو سفيان يقاتل النبي صلى الله عليه وسلم
ويؤآب عليه المشركين وأهل الكتاب إلى أن أظفر الله رسوله ودانت له العرب
بفتح مكة ، وكذلك بعد الإسلام خرج معاوية على على وقاتله .

والحكمة فى تقسيم الخمس على هذا النحو - أن الدولة التى تدير سياسة الأمة لا بد
لها من المال لتستعين به على القيام بالمصالح العامة كشعائر الدين والدفاع عن الأمة ،
وهو ما جعل لله فى الآية ، ثم نفقة رئيس حكومتها ، وهو سهم الرسول فيها ،
ثم ما كان لأقوى عصبته وأخلصهم له وأظهرهم تمثيلاً لشرفه وكرامته وهو سهم
ذوى القربى ، ثم ما يكون لذوى الحاجات من ضعفاء الأمة ، وهم الباقون .

ولا يزال هذا الاعتبار مراعى معمولاً به فى كثير من الدول مع اختلاف شئون
الاجتماع والمصالح العامة ، فالمال الذى يرصد للمصالح العامة يدخل فى موازين
الوزارات المختلفة ما بين جهريه وسريه ، ولاسيما الأمور الحربيه ، وكذلك راتب ممثل
الدولة من ملك أو رئيس جمهوريه منه ما هو خاص بشخصه ، ومنه ما هو لأسرته
وعياله ، ومن موازين الدولة ما يبذل لإعانة الجماعات الخيرية والعلمية ونحوها .

ولكن اليتامى والمساكين وابن السبيل لا تجعل لهم الدول في هذا العصر حقاً في أموال الدولة ، وإن كان بعض الدول يعطيهم أموالاً من الأوقاف الخيرية التي تتولى أمر استغلالها وإنفاق ريعها على المستحقين له ، وبعضها يخصص إعانات للعمال المتعطلين في وقت الحاجة فقط .

وعن ابن عباس أنه قال (فإن لله خمسة) مفتاح كلام أى إنه ذكر على سبيل التبرك ، وإنما أضافه سبحانه إلى نفسه ، لأنه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف شاء ، وليس المراد منه أن لله سهماً مفرداً ، لأن ما فى السموات والأرض فهو لله ، وبهذا قال الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم النخعي ، فقد قالوا سهم الله وسهم رسوله واحد ، وذكر الله للتعظيم .

(إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) أى إن كنتم آمنتم بما ذكر إيمان إذعان ، فاعلموا أن ما غنمتم من شيء قل أو أكثر فإن لله خمسة ، لأنه هو مولاكم وناصركم ، وللرسول الذى هداكم به وفضلكم على غيركم ، واقطعوا الأطماع عنكم ، وارضوا بحكم الله فى الغنائم ، وبقسمة رسوله فيها .

ويوم الفرقان هو اليوم الذى فرق الله فيه بين الإيمان والكفر وهو يوم بدر النبى الذى فيه الجمعان جمع المؤمنين وجمع المشركين فى الحرب والنزال ، وقد كان ذلك لسبع عشرة نخلت من شهر رمضان ، وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(والله على كل شيء قدير) ومن قدرته أن نصركم على قتلكم وجوعكم وضعفكم على ثلاثة أضعاف عددكم أو أكثر ، وأيد رسوله وأنجز وعده له .

(إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى) (مثثة العين) جانب الوادى ، والدنيا مؤنث الأدنى وهو الأقرب ، والقصوى مؤنث الأقصى وهو الأبعد .

والمعنى — إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا على عبدنا فى ذلك اليوم فى الوقت الذى كنتم مرابطين فيه بأقرب الجانبيين من الوادى إلى المدينة ، وفيه نزل المطر

لا في غيره ، والأعداء في الجانب الأبعد عنها ولا ماء فيه ، وأرضه رخوة تسوخ فيها الأقدام .

(والركب أسفل منكم) أى والعير التى خرج المسلمون للقائها فى مكان أسفل من مكانكم وهو ساحل البحر كما تقدم ، إذ كان أبو سفيان قادمًا بها من الشام . (ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد) أى ولو تواعدتم أتمم وهم القتال وعلتم ما لهم وما لكم لاختلفتم فى الميعاد ، كراهة للحرب لقتلكم ، وعدم إعداد العدة لها ، وانحصار همكم فى العير ، وبأسا من الظفر عليهم ، ولأن غرض الأكرين منهم كان إيقاد العير دون القتال ، لأنهم كانوا يهابون قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يأمنون نصر الله له ، لأن كفر الكثيرين منهم به كان استكبارا وعنادا لاعتقادا . (ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا) أى ولكن تلاقيم على غير موعد ولا رغبة فى القتال ليقضى الله أمرا كان فى علمه وحكمته أنه واقع لإحالة ، وهو القتال المفضى إلى خزيهم ونصرهم عليهم ، وصدق وعده لرسوله ، وإظهار دينه على الدين كله ولو كره المشركون .

(ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيا عن بينة) البينة الحججة الظاهرة ، أى فعل ذلك ليقرب على قضاء هذا الأمر أن يهلك من الكفار من هلك عن حجة بينة مشاهدة بالبصر ، على حقية الاسلام ، بإنجاز وعده لرسوله ومن معه من المؤمنين ، بحيث تنتفى الشبهة ، ولا يكون هناك مجال للاعتذار عند الله عن إجابة الدعوة ، ويعيش من يعيش من المؤمنين عن حجة شاهدها وعانيتها ، فيزداد يقينا بالإيمان ونشاطا فى الأعمال .

(وإن الله لسميع علم) لا يخفى عليه شئ من أقوال الكافرين والمؤمنين ، ولا من عقائدهم وأفعالهم ، فهو يسمع ما يقول كل فريق منهم من الأقوال الصادرة عن عقيدة ، والأعذار التى يعتذر بها عن تقصيره فى أعماله ، ويعلم ما يكتمه من ذلك ومن غيره ، ويجازى كلا على حسب ما يسمع ويعلم

والخلاصة — إن غزوة بدر قامت بها الحجة البالغة للمؤمنين بنصرهم كما بشرهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وحجته البالغة على الكافرين بخذلانهم وانكسارهم كما أنذرهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا مجال في ذلك للمكابرة والتأويل .

(إذ يريكم الله في منامك قليلاً) أى إنه تعالى سميع لما يقول أصحابك ، عليم بما يضمرونه ، إذ يريك الله عدد عدوك وعدوهم قليلاً في الرؤيا المنامية ، فتخبر بها المؤمنين ، وتطمئن قلوبهم ، وتقوى آمالهم بالنصر ، فيجترون عليهم .

(ولو أراكم كثيراً لفشلتم ولتنازعتهم في الأمر) أى ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيراً لفشل أصحابك وخافوا ولم يقدرُوا على حرب القوم ، ولوقع بينهم النزاع وتفرق الآراء في أمر القتال ، إذ منهم القوى الإيمان والعزيمة ، فيطيع الله ورسوله ويقاوم ، ومنهم الضعيف الذى يشبط عن القتال بمثل الأعداء التى جادلوا بها الرسول صلى الله عليه وسلم كما تقدم فى قوله « **يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ** » .

(ولكن الله سلم) أى ولكن الله سلمكم من الفشل والتنازع وتفرق الآراء ، وما يعقب ذلك من الانكسار والخذلان .

(إنه عليم بذات الصدور) أى إنه تعالى عليم بما تخفيه الصدور من شعور الجبن والجرع الذى تضيق به فتحججهم عن القتال ، ومن شعور الإيمان والتوكل الذى يبعث فى النفس الطمأنينة والصبر فيحملها على الإقدام ، ويسخر لكل منهما الأسباب التى تقضى إلى ما يريد منها .

(وإذ يريكم الله إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً) الخطاب هنا للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، أى وفى الوقت الذى يريك الله الكافرين عند التلاقى معهم عدداً قليلاً ، بما أودع فى قلوبكم من الإيمان بوعد الله بنصركم وبثبیتكم بملائكته والاستهانة بهم ، ويقللكم فى أعينهم لقلقتكم بالفعل ، ولما كان عندهم من عجب وغرور بأنفسهم حتى لقد قال أبو جهل : إنما أصحاب محمد أكلة جزور (أى لقلقتهم يكفيهم جزور واحد فى اليوم) .

وإخلاصة — إنه فعل ذلك ليقدم كل منكم على قتال الآخر ، فهذا واثق بنفسه مدلّ بياسه ، وهذا متكلم على ربه ، واثق بوعدده ، حتى إذا ما التقيتم ثبتكم وثبطهم ، ليقضى بنصركم عليهم أسراً كان في عامه مفعولاً ، وهو أن تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، ومن ثم هيأ الأسباب وقدرها تقديراً .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه نعمه على رسوله وعلى المؤمنين يوم بدر — قفى على ذلك بذكر أديين عظيمين إذا التقوا بعدوهم :

(١) الثبات وتوطين النفس على اللقاء مع عدم التواني والتكاسل .

(٢) ذكر الله كثيراً وهو ذكره بالستهم وقلوبهم ، تنبيهاً إلى أن الإنسان يجب ألا يخلو قلبه من ذكره في أشد الأوقات حرجاً . وقد طلب إلينا الثبات والطاعة لله ورسوله حتى لا نفشل وتدول علينا الدولة .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئته فاثبتوا) أى إذا لقيتم فئته من أعدائكم الكفار فاثبتوا لهم ولا تفروا أمامهم ، فإن الثبات قوة معنوية طالما كانت السبب في النصر والغلب بين الأفراد والجيوش ، انظر إلى الرجلين الجالدين يتصارعان فيعيا كل منهما وتضعف قوته ، ويتوقع كل لحظة أن يقع صريعاً ، ولكن قد يخطر له أن خصمه

ربما وقع قبله فيثبت إلى اللحظة الأخيرة ، فيكون له الفلج والفوز على خصمه ، وهكذا في الحروب ، فإن من أهم أسباب النصر فيها الثبات وعدم اليأس ، بل الثبات نافع في كل أعمال البشر ، فهو الوسيلة في الفوز والنجاح فيها .

(واذكروا الله كثيرا) أى وأكثر من ذكر الله في أثناء القتال في قلوبكم ،

بذكر قدرته ووعده بنصر رسله والمؤمنين ونصر كل من يتبع سنتهم بنصر دينه وإقامة سنته ، وبأن النصر بيده ومن عنده يؤتية من يشاء ، وبألسنتكم بالتكبير ونحوه ، وبالذعاء والتضرع إليه مع اليقين بأنه لا يعجزه شيء .

(لعلكم تفلحون) أى إن الثبات وذكر الله هما وسيلتان من وسائل الفوز ؛

ويعمدان للفلاح في القتال في الدنيا ، وفي نيل الثواب في الآخرة .

وفي ذلك إيماء إلى أنه يجب على العبد ألا يفترعن ذكر الله أكثر ما يكون

هما ، وأشغل ما يكون قلباً ، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره .

(وأطيعوا الله ورسوله) أى وأطيعوا الله فيما أمركم به من الأسباب الموجبة

للفلاح في القتال وفي غيره ، وأطيعوا رسوله كذلك ، فهو المبين لكلام ربه ، والمنفذ

له بالقول والعمل والحكم ، وهو القائد الأعظم في القتال ، فطاعته هي جامع النظام ،

والنظام ركن من أركان الظفر ، وهو المشارك لكم في الرأي والتدبير والاستشارة

في الأمور

(ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) أى لا يكن منكم تنازع واختلاف ،

فإن ذلك مدعاة للفشل والخيبة وذهاب القوة ، فيتغلب عليكم العدو .

وأصل الريح الهواء المتحرك ثم استعيرت للقوة والغلبة ، لأنه لا يوجد في الأجسام

ما هو أقوى منها ، فهي تهيج البحار وتقتلع الأشجار وتهدم الدور والقلاع ، ومن

ثم يقال هبت رياح فلان إذا جرى أمره على ما يريد ، كما يقال : ركبت رياحه

إذا ضعف أمره وولت دولته .

(واصبروا إن الله مع الصابرين) أى واصبروا على الشدائد وعلى ما تلاقونه من بأس العدو واستعداده وكثرة عدده ، فالله مع الصابرين يمدهم بمعونته وتأيدته ، ومن كان الله معينا له فلا يغلبه غالب .

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ
لَكُمْ ، فَأَمَّا تَرَاتِبِ الْفَيْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبِيهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ
إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ
الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هُوَ لَاءَ دِينِهِمْ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى
اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)

شرح المفردات

الذين خرجوا : هم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير ، والبطر : إظهار الفخر والاستعلاء بنعمة القوة أو الفنى أو الرياسة ، ويعرف ذلك فى الحركات المتكلمة والسكلام الشاذ ، والرئاء : أن يعمل المرء ما يجب أن يراه الناس منه ليثبتوا عليه ويعجبوا به ، وتراءت الفيتان : قرب كل منهما من الآخر وصار بحيث يراه ويعرف حاله ، ونكص : رجع القهقرى وتولى إلى الوراء ، والمنافق : من يظهر الإسلام ويسر الكفر ، والذين فى قلوبهم مرض : هم ضعاف الإيمان تملأ قلوبهم الشكوك والشبهات ، فتنزل اعتقادهم حيناً وتسكن حيناً آخر .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه عباده المؤمنين بما أمر به من جلائل الصفات ومحاسن الآداب التي تكون سبب الظفر في القتال ، ونهاهم عن التنازع - ففى على ذلك بنبيهم عما كان عليه مشركو قريش حين خرجوا لحماية الغير من البطر والكبرياء - والصد عن سبيل الله .

الإيضاح

(ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورثاء الناس) أى عليكم أن تمتثلوا ما أمرتم به وتنتهبوا عما نهيتهم عنه ، ولا تكونوا كأعدائكم المشركين الذين خرجوا من ديارهم فى مكة وغيرها من الأماكن التي استنفرهم منها أبو سفيان بطرين بما أوتوا من قوة ونعم لا يستحقونها ، مرائين الناس بها ليعجبوا بها ويثنوا عليهم بالغنى والقوة والشجاعة .

(ويصدون عن سبيل الله) أى وهم بخروجهم يصدون عن سبيل الله وهو الإسلام بحملهم الناس على عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإعراض عن تبليغ دعوته ؛ وتعذيب من أجابها إذا لم يكن لهم من يمنعهم ويحميهم من قرابة أو حلف أو جوار .

(والله بما يعملون محيط) أى والله عليم بما جاءوا لأجله ، ومن ثم فهو يجازيهم عليه فى الدنيا والآخرة بمتضى سننه فى ترتيب الجزاء على الأعمال وصفات النفوس . وفى هذا زجر وتهديد عن الرياء والتصنع والبطر والكبرياء ، وأنه سيجازى عليها أشد الجزاء .

قال البغوى : نزلت فى المشركين حين أقبلوا إلى بدر ولهم بغى ونفر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيالاتها وغرها تحادك

وتكذب رسولك ، اللهم فتنصرك الذي وعدتني « قالوا ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز غيره أرسل إلى قریش : إنكم إنما خرجتم لتمتعوا غيركم ، فقد نجاها الله فارجعوا ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى يرد بدرنا - وكان موسما من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام - فنقيم ثلاثا فننحر الجزور ونظعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبدا ، فوافوها فسقوا كثوس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان .

فنبى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم وأمرهم بإخلاص النية والحسبة في نصر دينه ومؤازرة رسوله صلى الله عليه وسلم .

(وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم) أى واذا ذكر أيها الرسول للمؤمنين حين زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم يوسوسته ، وقال لهم بما ألقاه في روعهم ، وخيل إليهم أنهم لا يغلبون لكثرة عددهم وعددهم ، وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات ، مجير لهم حتى قالوا : اللهم انصر أهدى الفئتين وأفضل الدينين .

(فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه) أى فلما قرب كل من الفريقين المقاتلين من الآخر وصار بحيث يراه ويعرف حاله ، وقبل أن يصطلى نار القتال معه - نكص على عقبيه أى رجع التهقري وتولى إلى الوراء وهى الجهة التى فيها العقبان ، والمراد أنه كف عن تزيينه لهم وتغريه بهم .

(وقال إني بريء منكم إني أرى ما لاترون إني أخاف الله) أى تبرأ منهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله تعالى للمسلمين بالملائكة .

(والله شديد العقاب) قد تكون هذه العبارة من كلام الشيطان ، وقد تكون من كلامه تعالى .

والخلاصة - إن جند الشيطان كانوا منبثين في المشركين يوسوسون لهم بما لبستهم لأرواحهم الخبيثة بما يُغريهم ويغرمهم ، كما كان الملائكة منبثين في المؤمنين يلهمونهم

بملاستهم لأرواحهم الطيبة ما يثبتون به قلوبهم ويزيدهم ثقة بوعد الله بنصرهم ، فلما تراءت الفئتان وأوشكا أن يتلاحما فر الشيطان بجنوده من بين المشركين ، لئلا تصل إليهم الملائكة الملايسة للمؤمنين (وهما ضدان لا يجتمعان ، ولو اجتمعا لقتى أقواهما وهم الملائكة على أضعفهما وهم الشياطين) .

خوف الشيطان إنما كان من إحراق الملائكة لجنوده لا على المشركين ، كما يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق متلاش أمامه لا يبق منه شيء .

(إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم) أى وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم حين يقول المنافقون ومن فى حكمهم من مرضى القلوب : ما حمل هؤلاء المؤمنين على الإقدام على ما أقدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم - إلا غرورهم بدينهم ، ولا غرو أن تصدر هذه المقالة ممن حرم الإيمان الكامل والثقة بالله والتوكل عليه .

روى عن مجاهد أنه قال : هم فئة من قريش ، قيس بن الوليد بن المغيرة والحارث ابن زمة بن الأسود بن المطلب ويعلى بن أمية والعاص بن منبه ، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياح فخبسهم ارتياحهم ، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : غر هؤلاء دينهم حتى أقدموا على ما أقدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم .

(ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) أى ومن يكل أمره إلى الله ويؤمن إيمان اطمئنان بأنه ناصره ومعينه ، وأنه لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء أراد - يكفه ما يهمه وينصره على أعدائه وإن كثر عددهم وعظم استعدادهم ، لأنه العزيز الغالب على أمره ، الحكيم الذى يضع كل أمر فى موضعه بمقتضى سنته فى نظام العالم ، ومن ذلك أن ينصر الحق على الباطل .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
 وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ
 اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ
 الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبِرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيَّرُوا
 مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ
 قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ
 وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)

شرح المفردات

أدبارهم ، أى ظهورهم وأقفيتهم ، وعذاب الحريق : عذاب النار بعد البعث ،
 والدأب : العادة المستمرة .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حال هؤلاء الكفار من خروجهم إلى قتال المؤمنين بطرا
 ورتاء الناس ، ومن تزيين الشيطان لهم أعمالهم - قفى على ذلك بذكر أحوالهم حين
 موتهم وبيان العذاب الذى يصل إليهم فى ذلك الوقت .

الإيضاح

(ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا
 عذاب الحريق) أى لو عاينت أيها الرسول حال الكفار حين يتوفاهم الملائكة ،

فينزعون أرواحهم من أجسادهم ضاربين وجوههم وأقفيتهم ، قائلين لهم : ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون (وهذا الضرب والكلام من عالم الغيب ، فلا يقتضى أن يراه الذين يحضرون وفاتهم ، ولأن يسمعوا كلامهم حين يقولون ذلك لهم) لو رأيت ذلك لرأيت أمرا عظيما هائلا يرد الكافر عن كفره ، والظالم عن ظلمه إذا هو علم عاقبة أمره .

وقد روى أن ضرب الوجوه والأدبار كان يبدر ، كان المؤمنون يضربون من أقبل من المشركين من وجوههم والملائكة يضربونهم من أديبارهم .
 (ذلك بما قدمت أيديكم) أى هذا العذاب الذى ذقتموه بسبب ما كسبت أيديكم من سوء الأعمال فى حياتكم الدنيا من كفر وظلم ، وهذا يشمل القول والعمل .
 ونسب ذلك إلى الأيدي وإن كان قد يقع من الأيدي والأرجل وسائر الحواس أو بتقدير العقل ، من أجل أن العادة قد جرت بأن أكثر الأعمال البدنية تراول بها .

(وأن الله ليس بظلام للعبيد) أى وبأن الله لا يظلم أحدا من عبيده ، فلا يعذب أحدا منهم إلا بجرم اجترمه ، ولا يعاقبه إلا بمحصيلته إياه ، وقد وقع ذلك منكم ، فأنتم الظالمون لأنفسكم فلوموها ، ولا لوم إلا عليها . روى مسلم عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أن الله يقول يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا ؛ يا عبادى إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

(كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم)
 أى فقل هؤلاء المشركين من قريش الذين قتلوا يبدر كعادة قوم فرعون وفعلمهم وفعلم من قبلهم من الأمم الخالية ، كفروا بآيات ربهم فأخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر ، ولم يظلم أحدا منهم مثقال ذرة ، ونصر رسله والمؤمنين .

وكما كانت سنته تعالى في أولئك أن أخذهم بذنوبهم ، فسنته في هؤلاء كذلك فقد نصر رسوله والمؤمنين في بدر ، وأهلك هؤلاء بذنوبهم .
 (إن الله قوى شديد العقاب) أى إن الله قوى لا يغلبه غالب ، ولا يفوته هارب ، شديد العقاب لمن استحق عقابه وكفر بآياته وجحد حججه ، وقد جعل لكل شيء أجلا .

روى البخارى ومسلم وابن ماجه عن أبى موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .
 (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) أى ذلك الذى ذكر من أخذه لقريش بكفرها بنعم الله عليها ، إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، فكذبوه وأخرجوه من بينهم وحاربوه ، كأخذه للأمم قبلهم بذنوبهم - فقد جرت سنة الله ألا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأحوال التى استحقوا بها تلك النعمة .

وفى الآية إيحاء إلى أن نعم الله على الأمم والأفراد منوطة ابتداء ودواما بأخلاق وصفات وأعمال تقتضيها ، فما دامت هذه الشئون ثابتة لهم متمكنة منهم ، كانت تلك النعم ثابتة لهم ، والله لا ينتزعها منهم بغير ظلم منهم ولا جرم ، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق وما يلزم ذلك من محاسن الأعمال ، غير الله حالهم وسلب نعمتهم منهم فصار العنى فقيرا والغزير ذليلا والقوى ضعيفا .

وليست سعادة الأمم وقوتها وغلبتها منوطة بسعة الثروة ولا كثرة العدد كما كان يظن بعض المشركين وحكاها الله عنهم بقوله « وَقَالُوا لَئِن كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَيَذَلَّنَّهُمْ وَنَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ » .

وكذلك لا يجابى الله تعالى بعض الشعوب والأمم بنسبها وفضل بعض أجدادها على غيرهم بنبوة أو مادونها فيؤتيتهم الملك والسيادة لأجل الأنبياء الذين ينسبون إليهم كما كان شأن بنى إسرائيل في غرورهم وتفضيل أنفسهم على جميع الشعوب

بنسبهم ، وهكذا شأن النصارى والمسلمين من بعدهم ، إذ اتبعوا سنتهم واغترخوا بدينهم . وإن كانوا من أشد المخالفين له .

(وإن الله لسميع عليم) أى إنه تعالى سميع لما يقول مكذبو الرسل ، عليم بما يأتون وما يذرون ، وهو مجازيهم على ما يقولون ويعملون إن خيرا نخير ، وإن شرا فقتل .

(كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين) أى حتى يغيروا ما بأنتسبهم تغييرا مماثلا لدأب آل فرعون ، فهم قد كذبوا كما كذب أولئك فخل بهم مثل ما حل بأولئك السابقين . والدأب الأول فى بيان كفرهم بمجرد ما قامت عليه أدلة الرسل من وحدانية الله ووجوب إفراده بالعبادة ، وفى تعذيب الله إياهم فى الآخرة ، فهو دأب وعادة فيما يتعلق بحقه تعالى من حيث ذاته وصفاته ، وفى الجزاء الدائم على الكفر به الذى ينتدى بالموت وينتهى بدخول النار .

والدأب الثانى فى تكذيبهم بآيات ربهم ونعمه من حيث إنه هو المرئى لهم ، ويدخل فى ذلك تكذيب الرسل وعنادهم وإيذاؤهم وكفر النعم المتعلقة ببعثتهم ، وفى الجزاء على ذلك بتغيير حالهم وعذابهم فى الدنيا .

وخلاصة ذلك — إن مادونه التاريخ من دأب الأمم وعاداتها فى الكفر والتكذيب والظلم فى الأرض ، ومن عقاب الله إياها — جار على سننه تعالى المطردة فى الأمم ، ولا يظلم ربك أحدا بسلب نعمة منهم ولا ياقبأع أذى بهم ، وإنما عقابه لهم أثر طبيعى لكفرهم وظلمهم لأنفسهم .

وأما عذاب الاستئصال بعذاب سماوى فهو خاص بمن طلبوا الآيات من الرسل وأنذروهم العذاب إذا هم كفروا بها بعد مجيئها ثم فعلوا ذلك .

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ
عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِنَّمَا

تَثَقَّفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ (٥٧) وَإِنَّمَا
تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً قَاتِبِذٌ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)
وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩).

شرح المفردات

الدابة : لفظ غلب استعماله في ذوات الأربع ، وأصله كل مادب على وجه
الأرض ، وهو المراد هنا ، عند الله : أى في حكمه وعلمه ، والذين عاهدت منهم :
هم طوائف من يهود المدينة ، وثقفه : أدركه وظفر به ، فشرّد بهم : أى نكل بهم
تنكيلا يشرد غيرهم من ناقضى العهد ، ومن خلفهم : هم كفار مكة وأعاونهم من مشركى
القبائل الموالية لهم ، والنبذ : الطرح ، على سواء : أى على طريق واضح لا خداع فيه
ولا خيانة ولا ظلم ، سبقوا : أى أفلتوا من الظفر بهم ، لا يعجزون : أى لا يمجدون الله
عاجزا عن إدراكهم ، بل سيجزيهم على كفرهم .

المعنى الجملى

بعد أن بين حال مشركى قريش فى قتالهم له بيدر - قفى على ذلك بذكر حال
فريق آخر من الكفار الذين عادوا النبى صلى الله عليه وسلم وقتلوه وهم اليهود الذين
كانوا فى بلاد الحجاز .

قال سعيد بن جبير : نزلت هذه الآيات فى ستة رهط من اليهود منهم ابن
تابوت ، وقال مجاهد : نزلت فى يهود المدينة وكان زعيمهم الطاغوت كعب بن
الأشرف ، وهو فيهم كأبى جهل فى مشركى مكة ، ثم ذكر سبحانه ما يجب أن يعمل
مع أمثالهم من الخونة ، وبين أن الرسول آمن من عاقبة كيدهم ومكرهم .

الإيضاح

(إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون) أى إن شر ما يذب على وجه الأرض في حكم الله وعدله هم الكافرون الذين اجتمعت فيهم صفتان :

(١) الإصرار على الكفر والرسوخ فيه بحيث لا يرجى إيمان جلتهم أو إيمان جمهورهم ، لأنهم إما رؤساء حاسدون للرسول صلى الله عليه وسلم معاندون له جاحدون بآياته المؤيدة لرسالته على علم منهم ، وفيهم يقول سبحانه : « يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ » . وإما مقلدون جامدون على التقليد لا ينظرون في الدلائل والآيات .

وقد لقبهم الله بالدواب وهو اللفظ الذى غلب استعماله في ذوات الأربع ، لإفادتهم أنهم ليسوا من شرار البشر فقط ، بل هم أضل من العجاوات ، لأن لها منافع وهؤلاء لا خير فيهم ولا نفع لغيرهم منهم كما قال تعالى في أمثالهم : « أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا » .

(٢) نقض العهد ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم عقد مع يهود المدينة عقب هجرته إليهم عهدا أقرهم فيه على دينهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، فنقض كل منهم عهده .

روى عن ابن عباس أنهم بنو قريظة نقضوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعانوا عليه بالسلاح في يوم بدر ثم قالوا : نسينا وأخطأنا ، فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد ومالتوا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وركب زعيمهم كعب بن الأشرف إلى مكة فخالفهم على محاربة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله : وهم لا يتقون ، أى لا يتقون الله في نقض العهد ولا فيما قد يترتب عليه من قتالهم والظفر بهم .

وبعد أن بين سبحانه أنهم قد تكرروا منهم نقض العهد - أردف ذلك بذكر ما يجب أن يعاملوا به فقال :

(فإِذَا تَثَقَّفْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَمُردِّبِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ) أى إنك إن تدرك هؤلاء الناقضين لعهدهم وتظفر بهم فى الحرب - فنكّل بهم أشدّ التنكيل حتى يكون ذلك سبباً لشروء من وراءهم من الأعداء وتفرّقتهم ، فيكون مثلهم مثل الإبل الشاردة الناذة عن أمكنتها .

وإنما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالإتيان فى هؤلاء الأعداء الذين تكررت مسالمتهم لهم وتجديدهم لعهدهم بعد نقضه ، لئلا يتخذوا مرة أخرى بكذبهم ، لما جبل عليه من الرحمة وحب السلم واعتبار الحرب ضرورة تترك إذا زال سببها كما قال تعالى : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا » وهم قد أوهوه المرة بعد المرة أنهم يرغبون فى السلم واعتذروا عن نقضهم العهد وكانوا فى ذلك مخادعين .

(لعالمهم يذكرون) أى لعل من خلفهم من الأعداء يذكرون النكال فيمنعهم ذلك من نقض العهد ومن القتال .

روى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب فى بعض أيامه التى لقي فيها العدو فقال : « أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف - ثم قال : اللهم منزل الكتاب ، وجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » .
وفى ذلك إيحاء إلى شيئين :

(١) إن الحرب ليست محبوبة عند الله ولا عند رسوله ، وإنما هى ضرورة يراد بها منع البغى والعدوان وإعلاء كلمة الحق ودحض الباطل : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

(٢) إن استعمال القسوة مع الناقضين للعهد والبادئين بالحرب والتنكيل بهم لتشريد من وراءهم - أمر لا بد منه للعظة والاعتبار حتى لا يعودوا إلى مثلها هم ولا غيرهم .

ولا يزال الأمر كذلك في هذا العصر ، وإن كانوا يريدون به الانتقام وشفاء
حافى الصدور من الأحقاد ، والتمتع بالمغانم من مال وعقار .
وبعد أن ذكر حكم ناقضى العهد حين سنوح الفرصة - قفى على ذلك بحكم من
لا ثقة بعهودهم فقال :

(وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء) أى وإن توقعت من قوم
معهدين خيانة ونكثا للعهد بوجود أمارات ظاهرة وقرائن تنذر بها ، فاقطع عليهم
طريق الخيانة قبل وقوعها بأن تنبذ عهدهم إليهم وتنذرهم بأنك غير مقيد به ولا مهتم
بأمرهم ، بطريق واضح لا خداع فيه ولا استخفاء .
والحكمة في هذا أن الإسلام لا يبيح الخيانة مطلقا .

وخلاصة ذلك - لا تحاربهم قبل أن تعلمهم أنك قد فسخت العهد الذى بينك
و بينهم حتى تكون أنت وهم فى العلم بنقض العهد سواء ، فلا يتوهموا أنك نقضت
العهد بنصب الحرب عليهم .

(إن الله لا يحب الخائنين) أى إن الخيانة مبغوضة بجميع ضروبها ، ولا وسيلة
لانتقاء ضررها من الكفار إذا ظهرت أماراتها إلا بنبذ عهدهم جهرة .
روى البيهقي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة المسلم والكافر فيهن
سواء - من عاهدته فوق بعهد ، مسلما كان أو كافرا ، فإما العهد لله ؛ ومن كانت
بينك وبينه رحم فصلها ، مسلما كان أو كافرا ؛ ومن أتمنتك على أمانة فأدها إليه ،
مسلما كان أو كافرا » .

وبعد هذا أنذر أولئك الخائنين ما سيحل بهم من عقاب فقال :
(ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا) أى لا يحسبن الذين كفروا أنهم سبقونا ونجوا
من عاقبة خيانتهم وشرهم ، ونحو الآية قوله : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ
أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » .

(إنهم لا يعجزون) أى إنهم لا يعجزون الله تعالى ولا يفوتونه بكرهم وخيانتهم

بل هو سيجزيهم ويمكن منهم في الدنيا بتسليط رسوله والمؤمنين عليهم وإذقتهم عاقبة كيدهم، والآية بمعنى قوله تعالى: «وَأَعْلَمُوا أَنكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ» .

وخلاصة ذلك — قطع أطاعهم في الانتفاع بهذا النبذ والغلبة على المؤمنين .
وفي الآية إيماء إلى أن ما أوجبه الإسلام من المحافظة على اليهود مع الأعداء المخالفين في الدين ، وما حرّمه من الخيانة فيها — لم يكن عن ضعف ولا عن عجز ، بل عن قوة وتأييد إلهي ، فقد نصر الله رسوله والمؤمنين على اليهود الخائنين الناقضين لعهودهم ، وأجلى من أبقاه السيف منهم من جوار معقل الإسلام (شبه جزيرة العرب).

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ
عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ، وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ، اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ،
وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)
وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
(٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ
وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَاللَّفَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) .

شرح المفردات

الإعداد : تهيئة الشيء للمستقبل ، والرباط والمرِبط : الحبل الذي تربط به الدابة ، ورباط الخيل : حبسها واقتناؤها ، والإرهاب والترهيب : الإيقاع في الرهبة وهي الخوف المقترن بالاضطراب ، وجنح للشيء وإليه : مال ، يقال جنحت الشمس للغروب

أى مالت إلى جانب الغرب الذى تغيب فى أفقه ، والسلم (بفتح السين وكسرهما)
والسلام: الصلح وضد الحرب ، والإسلام دين السلم والسلام كما قال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً » وحسبك الله : أى كافيك وناصرك عليهم .

المعنى الجملى

بعد أن أبان عز اسمه فيما سلف أن اليهود الذين عقدوا العهد مع النبي صلى الله
عليه وسلم وبها أمتهم على أنفسهم وأموالهم ودينهم - قد خانوه وتقضوا العهد
وساعدوا عليه أعداءه المشركين الذين أخرجوه من دياره ووطنه وتبعوه إلى مهجره
يقاتلون فيه لأجل دينهم ، وبذلك صاروا هم والمشركون سواء - أردف ذلك بذكر
ما يجب على المؤمنين فى معاملتهم أثناء الحرب التى أصبحت لامناص منها بما أحدثوه
من الخيانة والغدر والبداة بالعدوان ، وذلك سنة من سنن الاجتماع البشرى ،
إذ حصول الصراع بين الحق والباطل والقوة والضعف أمر لا مندوحة منه .

الإيضاح

(وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) أمر الله المؤمنين بالاستعداد
للحرب التى لا بد منها لدفع العدوان وحفظ الأنفس والحق والفضيلة .
ويكون ذلك بأمرين :

(١) إعداد المستطاع من القوة ، ويختلف هذا باختلاف الزمان والمكان ،
فالواجب على المسلمين فى هذا العصر : صنع للدفاع والطائرات والقنابل والدبابات
وإنشاء السفن الحربية والغواصات ونحو ذلك ، كما يجب عليهم تعلم الفنون والصناعات
التي يتوقف عليها صنع هذه الأشياء وغيرها من قوى الحرب .

وقد استعمل الصحابة المنجنيق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر
وغیرها ، روى مسلم عن عقبه بن عامر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وقد تلا هذه

الآية يقول : « ألا إن القوة الرمي » قالها ثلاثا ، وذلك أن رمى العدو عن بعد بما يقتله أسلم من مصاولته على القرب بسيف أو رمح أو حربة أو نحو ذلك ، وهذا يشمل السهم وقذيفة المنجنيق والطيارة والمدفع والبندقية ونحوها ، فاللفظ يشملها وإن لم تكن معروفة في عصره صلى الله عليه وسلم .

(٢) مرابطة الفرسان في تغور البلاد وحدودها ، إذ هي مداخل الأعداء ،

ومواضع مهاجرتهم للبلاد .

والحكمة في هذا أن يكون للأمة جند دائم مستعد للدفاع عنها إذا فجأها العدو على غرة ، وقوام ذلك الفرسان لسرعة حركتهم وقدرتهم على القتال وإيصال الأخبار من التغور إلى العواصم وسائر الأرجاء ، ومن أجل هذا عظم الشارع أمر الخيل وأمر بإكرامها ، ولا يزال للفرسان نصيب كبير في الحرب في هذا العصر الذي ارتقت فيه الفنون العسكرية في الدول الحربية .

(ترهبون به عدو الله وعدوكم) أى أعدوا لهم المستطاع من القوة الحربية ومن الفرسان المرابطة لترهبوا عدو الله الكافرين به وبما أنزله على رسوله وعدوكم الذين يترصبون بكم الدوائر ، إذ لا شيء يمنع الحرب إلا الاستعداد للحرب ، فالسكفار إذا علموا استعداد المسلمين وتأهبهم للجهاد واستكمالهم لجميع الأسلحة والآلات خافوهم ، وإلى هذا يشير أبو تمام إذ يقول :

وأخافكم كى تعتمدوا أسيافكم إن الدم المغبر يجرسه الدم

وهذا الخوف يفيد المسلمين من وجوه :

(أ) يجعل أعداءهم لا يعينون عدوا آخر عليهم .

(ب) يجعلهم يؤدون الالتزامات المطلوبة منهم .

(ج) ربما حملهم ذلك على الدخول في الإسلام والإيمان بالله ورسوله .

(وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) أى وترهبون به أناسا غير هؤلاء

الأعداء المعروفين لكم ، وهم مشركو مكة ومن والاهم ممن يجمعون بين هاتين

العداوتين حين نزول الآية عقب غزوة بدر - ممن لاتعلمون الآن عداوتهم بل يعلمهم الله وهو علام الغيوب .

والخلاصة - إن تكثير آلات الجهاد وأدواتها كما يهرب الأعداء الذين نعلم أنهم أعداء - يهرب الأعداء الذين لا نعلم أنهم أعداء ، فالاستعداد للحرب يهرب الأعداء ويمنعهم من الإقدام على القتال ، وهذا ما يسمى في العصر الحديث (السلام المسلح) (وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم) أى وما تنفقوا من شيء قليلا كان أو كثيرا في إعداد المستطاع من القوة والمرابطة في سبيل الله - فالله يعطيكم عليه الجزاء الوافي التام .

(وأتم لاتظامون) أى والحال أنه لا يلحقكم ظلم ولا اضطهاد من أعدائكم ، فإن القوى المستعد لمقاومة المعتدى كما يعتدى عليه أحد ، وإن اعتدى عليه فقل أن يظفر به .

وفي هذا إيماء إلى أن إعداد المستطاع من القوة الحربية والمرابطة في سبيل الله لا يمكن تحقيقهما إلا بإفناق الكثير من المال ، ومن ثم رغب سبحانه عباده المؤمنين في الإفناق في سبيله ، ووعدهم بأن كل ما ينفقون فيها يوفى إليهم إما في الدنيا والآخرة أو في الآخرة فحسب .

وإذ كان السلم هو المقصد الأول لا الحرب أكده بقوله :

(وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) أى وإن مال العدو عن جانب الحرب إلى جانب السلم ولم يعتز بقوته فاجنح لها ، لأنك أولى بالسلم منهم .

(وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) أى اقبل السلم وفوض الأمر إلى الله ولا تخف غدرهم ومكرهم ، فالله هو السميع لما يقولون ، العليم بما يفعلون ، فلا يخفى عليه ما يأترون به من السكيد والخداع وإن خفى عليك .

(وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله) أى وإن يريدوا بجنوحهم للسلم

الكيد والخداع ليفترصوا القرص كانتظار الغيرة التي تمكنهم من أهل الحق ،
أو الاستعداد للحرب ، فالله يكفيك أمرهم وينصرك عليهم .

(هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) أى إن من آثار عنايته بك أن أيدك
بتسخير المؤمنين لك ، وجعلهم أمة متحدة متآلفة متعاونة على نصرك ، وأن سخر لك
ما وراء الأسباب من خوارق العادات كالملائكة التي تثبت القلوب يوم بدر .

(وألف بين قلوبهم) أى إنه تعالى جمعهم على الإيمان بك ، وبذل النفس
والمال فى مناصرتك ، بعد التفرق والتعادى الذى كان أثر حروب طويلة وضعفان
موروثه كما كان بين الأوس والخزرج من الأنصار .

ونحو الآية قوله فى سورة آل عمران : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » .

وقد كاد يقع شيء من التباغض بين المهاجرين والأنصار حين قسمة الغنائم
فى حنين ، فكفاهم الله شرد ذلك بفضله وحكمة رسوله .

وفى الآية إيماء إلى أن النصر ينال بالأسباب التي من أهمها التآلف والاتحاد
بفضل مقدر الأسباب ورحمته بالعباد ومن جرّاء ذلك قال :

(لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما أنفت بين قلوبهم) أى إنه لولا نعمة الله عليهم
بأخوة الإيمان التي هى أقوى من أخوة الأنساب والأوطان - لما أمكنك أن تؤلف
بين قلوبهم بالمنافع الدنيوية ، فالضعائن الموروثه والدماء المسفوكه فى الأنصار لا تزول
بالأعراض الزائلة ، وإنما تزول بصادق الإيمان الذى هو وسيلة السعادة فى الدنيا
والآخرة ، كما أن التآلف بين أغنياء المهاجرين وفقرائهم ، وأشرفهم وعامتهم ، على
ما كان بينهم من فوارق فى الجاهلية ، وجمع كلمة البيوت والعشائر مع رسوخ العداوات
والإحتن - لم يكن مما ينال بالمال والأمال فى المعانم ونحوها ، على أن شيئاً من ذلك
لم يكن فى يد الرسول أول الإسلام وإن كان قد صار فى يده شيء كثير منه فى المدينة
ينصر الله له فى قتال المشركين واليهود جميعا .

وكذلك جمع كلمة المهاجرين والأنصار على ما يدل به كل منهما بميزة لا تتوافر لسواه ، فلما جروا لهم مزية القرب من الرسول والسبق إلى الإيمان ، والأنصار لهم ميزة المال والقوة وإتقاد الرسول وقومه من ظلم مشركي مكة وإيواؤهم ومشاركتهم لهم في أموالهم ، فكل هذا من عوامل التحاسد والتنازع لولا فضل الله وعنايته ، ومن ثم قال :

(ولكن الله ألف بينهم) إذ هداهم إلى الإيمان الذي دعوتهم إليه فتآلفت

قلوبهم .

ونحو الآية قوله : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

وقد دلت التجارب على أن التآلف من أقوى وسائل التعاون وأنجعها ، وأجدى وسائل التحاب والتآلف قوة الإيمان ، ومن ثم قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الرحم ليقطع ، وإن النعمة لتكفر ، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يرححها شيء ، ثم قرأ : « لَوِ أَنْفَقْتَ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آتَيْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ » الآية .

(إنه عزيز حكيم) أى إنه تعالى الغالب على أمره الذى لا يغلبه خداع الخادعين ولا كيد الماكرين ، الحكيم فى أفعاله ، فينصر الحق على الباطل ، ويفضل الجنوح للسلم إذا جنح إليها العدو على الحرب .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ
حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ
يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ
ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ
مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) .

شرح المفردات

حسبك : أى كافيك ما يهيك ، والتحريض : الحث على الشيء ، لا يفقهون : أى لا يدركون حكمة الحرب وما يقصد بها من سعادة فى الدنيا والآخرة ، والضعف (بالفتح والضم) يشمل المادى والمعنوى ، وقيل هو بالضم لما يكون فى البدن ، وبالفتح لما يكون فى الرأى والعقل والنفس .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله رسوله بالجنوح للسلم إذا جنح لها الأعداء وربما كان جنوحهم لها مظنة الخداع والمكر ، ووعده أن يكفيه أمرهم إذا أرادوا التوسل بالصلح إلى الحرب وضروب الإيذاء والشر ، وامتن عليه بتأييده له بنصره وبالمؤمنين إذ سخرهم له وألف بين قلوبهم باتباعه - قفى على ذلك بوعده بكفايته له وهؤلاء المؤمنون الذين ألف قلوبهم فى حالى الحرب والسلم وجعل هذا تقديماً لأمره بتحريضهم على القتال حين الحاجة إليه كما إذا بدأ العدو بالحرب أو نقض العهد أو خان فى الصلح .

الإيضاح

(يأيتها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) أى إن الله تعالى كاف لك كل ما يهيك من أمر الأعداء وغيرهم ، وكاف لمن أيدك من المؤمنين .
 ونحو الآية قوله « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . وقوله : قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ » .

وإذا كان دأب المؤمنين أن يقولوا « حسبنا الله ونعم الوكيل » فأجدرُ بأنبيائه أن يكونوا أكمل توحيدا وتوكلا عليه من غيرهم ولا سيما خاتم أنبيائهم .

والمراد بالمؤمنين جماعتهم من المهاجرين والأنصار ولا سيما من شهد منهم بدرًا -
 (يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال) أى حرض المؤمنين على القتال ورجبهم
 فيه لدفع عدوان الكفار من إعلاء كلمة الحق والعدل وأهلها على كلمة الباطل والظلم
 وأنصارهما، إذ ذلك من ضرورات الاجتماع البشرى وسنة التنازع فى الحياة والسيادة.
 والخلاصة - حثهم على ما يقبهم أن يكونوا حرضا أو يكونوا من المهالكين
 بعدوان الكافرين عليهم وظلمهم إياهم إذا رأوهم ضعفاء مستسلمين .

(إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا
 ألفا من الذين كفروا) أى إن يوجد منكم عشرون صابرون يغلبوا بتأثير إيمانهم
 وصبرهم وقتهم مائتين من الكافرين الذين جردوا من هذه الصفات الثلاث ، وهذا
 عدة منه تعالى وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من
 الكافرين بعون الله وتأييده .

والخلاصة - ليصبرن الواحد لعشرة ، فجماعة المؤمنين الصابرين ترجح جماعة
 الكافرين بهذه النسبة العشرية ، سواء قلوا أو كثروا ، بحيث يؤمرون بقتالهم وعدم
 الفرار منهم إذا بدءوهم بالقتال .

(ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) أى أتم تغلبونهم وهم بهذه النسبة بسبب أنهم
 قوم لا يفقهون ما تفقهون من حكمة الحرب وما يراد بها من مرضاة الله عز وجل فى
 إقامة سننه العادلة وإصلاح حال عباده بالعقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة ومن
 وجوب مراعاة أحكامه وسننه بإعداد كل ما يستطاع من قوة ، ومن كون غاية
 القتال عند المؤمنين إحدى الحسنين النصر والقيمة الدنيوية ، أو الشهادة
 والسعادة الآخروية .

وحالهم يخالف حالكم فى كل ما تقدم ، ولا سيما منكبرى البعث والجزاء منهم
 كشركى العرب فى ذلك العصر ، واليهود الذين أعتمهم المطامع المادية وحب

الشهوات ، فهم أحرص على الحياة منكم لعدم اعتقادهم بسعادة أخروية ، إلى أن أهل الكتاب يظنون أنهم يحصلون عليها بنسبهم وشفاعة أنبيائهم .
وفي الآية إيماء إلى أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين بكل ما يتعلق بحياة البشر وارتقاء الأمم ، ومن ثم كانت المائة منهم دون العشرة من المؤمنين الصابرين .

وهكذا كان المسلمون في العصور الأولى حين كانوا يعملون بهداية دينهم وكانوا بها أرباب ملك واسع وعز وجاه عريض ودانت لهم الشعوب الكثيرة ، حتى إذا ما تركوا هذه الهداية زال مجدهم وسؤددهم وذهب ريحهم ونزع منهم أكثر ذلك الملك .

وبعد أن بين المرتبة العليا التي ينبغي أن تكون للمؤمنين ، قفى على ذلك ببيان ما دونها من مرتبة الضعف فقال :

(الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين) روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم ألا يفر الواحد من عشرة ، فجاء التخفيف فقال : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين » قال : فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم اهـ .

وهذا الحديث استدلل العلماء على وجوب ثبات الواحد المسلم إذا قاوم رجلين من الكفار وتحريم الفرار عليه منهما ، سواء طلباه أو طلبهما ، وسواء وقع ذلك وهو واقف في الصف مع العسكر أو لم يكن هناك عسكر .

والخلاصة — إن أقل حال للمؤمنين مع الكفار في القتال أن ترجح المائة منهم على المائتين والألف على الألفين ، وإن هذه رخصة خاصة بحال الضعف كما كان الحال في الوقت الذي نزلت فيه هذه الآيات وهو وقت غزوة بدر حين كان المؤمنون

لا يجدون ما يكفيهم من القوت ولم يكن لديهم لإفروس واحد ، وأنهم خرجوا بقصد لقاء العير غير مستعدين للحرب ، وكانوا أقل من ثلث المشركين الكاملي الأهبة والعدة .

ولما كملت للمؤمنين القوة كانوا يقاتلون عشرة أضعافهم أو أكثر وينتصرون عليهم ، وما تم لهم فتح ممالك الفرس والروم وغيرهم إلا بذلك .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في عهده ومن بعده القدوة في ذلك ، فقد كان الجيش الذي أرسل إلى مؤتة من مشارف الشام للقصاص ممن قتلوا رسوله الحرث بن عمير الأزدي ثلاثة آلاف وكان الجيش الذي قاتلهم من الروم ومنتصرة العرب مائة وخمسين ألفا .

وقوله يا ذن الله أى بمعونته وتوفيقه ، وبمعنى الآية قوله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

وفي ذلك إيماء إلى أن من سنن الله في الغلب أن يكون للصابرين على غيرهم ، وفي هذا تحذير للمؤمنين أن يغتروا بدينهم ويظنوا أن الإيمان وحده يقتضى النصر والغلب وإن لم يقترن بالصفات اللازمة لكماله ، ومن أهمها وأعظمها الصبر والعلم بحقائق الأمور ومعرفة سنن الله في خلقه .

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنَمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩) .

شرح المفردات

الأسرى : واحدهم أسير وهو من الأسر وهو الشد بالإسار أى القيد من الجلد ، وكان من يؤخذ من العسكر فى الحرب يشد لثلا يهرب ، ثم صار يطلق على أخيد الحرب وإن لم يشد ، والإئتمان فى كل شىء : قوته وشدته ، يقال قد أئتمنه المرض إذا اشتدت قوته عليه ، وكذلك أئتمته الجراح ، والثخانة الغلظ ، فكل شىء غليظ فهو ثخين ، والعرض : ما يعرض ولا يدوم سمي به حطام الدنيا لأنه حدث قليل اللبث ، ومسك : أى أصابكم ، وفيما أخذتم : أى لأجل ما أخذتم من الفداء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون فى حال الغزو والجهاد أمام أعدائهم الكافرين من الصبر والثبات على القتال ، ومن تفضيل السلم إذا جنح العدو إليها - ففى على ذلك بذكر أحكام الأسرى لأن أمورهم يفصل فيها بعد القتال غالباً كما وقع فى وقعة بدر وكما يقع فى كل زمان .

روى ابن أبى شيبة والترمذى وابن مردويه والبيهقى عن ابن مسعود قال : « لما كان يوم بدر جىء بالأسارى ، فقال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر يا رسول الله كذبوك وأخرجوك وقتلوك ، قدّمهم فأضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه أنت فى واد كثير الحطب فأضرمه عليهم ناراً ، فقال العباس رضى الله عنه وهو يسمع ما يقول : أقطعت رحمتك ؟ فدخل النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئاً ، فقال أناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ، وقال أناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ، ونفّرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله سبجانه ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد

من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ كَافِرٌ بَدِيدٌ) ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام قال : (إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) وإن تغفر لهم فإني عبادك ، وإن تغفر لهم فإني أنت العزيز الحكيم) ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال : (رَبَّنَا أَطْمَسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) وإن مثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام قال : (رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) أتم عائلة فلا يفلتن أحد إلا بقاء أو ضرب عنق - فقال عبد الله رضى الله عنه يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيته في يوم أخوف من أن تقع على الحجارة منى في ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سهيل بن بيضاء فأنزله الله تعالى (ما كان لني أن يكون له أسرى) إلى آخر الآيتين .

وروى أحمد من حديث ابن عباس قال : «لما أسروا الأسارى (يعنى يوم بدر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر : ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا بن الخطاب؟ قال لا والله لا أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكننى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن علينا من عقيل (أخيه) فيضرب عنقه ، وتمكننى من فلان - نسيب لعمر - فأضرب عنقه ، ومكن فلانا من فلان قرابته فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت .

فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين بيكيان ، قلت يا رسول الله أخبرنى ، من أى شيء تبكى أنت وصاحبك؟ فإن وجدت

بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تبا كيت لبكائكما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبكى للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض على عذابهم أذى من هذه الشجرة (شجرة قريبة منه) وأنزل الله عز وجل (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) .

وفي هذا الحديث تصريح بأن الذين طلبوا منه صلى الله عليه وسلم اختيار الفداء كثيرين، وإنما ذكر في أكثر الروايات أبو بكر رضى الله عنه، لأنه أول من أشار بذلك، ولأنه أكبرهم مقاماً .

وروى ابن المنذر عن قتادة قال: أراد أصحاب محمد الفداء يوم بدر فقادوهم بأربعة آلاف، أربعة آلاف .

الإيضاح

(ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) أى ما كان من شأن نبي من الأنبياء ولا من سنته في الحرب أن يكون له أسرى يتردد أمره فيهم بين المنّ والفداء إلا بعد أن يثخن في الأرض أى إلا بعد أن يعظم شأنه فيها ويتم له الغلب والقوة بقتل أعدائه، لأن الملك والدولة إنما تقوى وتشتد بالقتال والقتل كما قال:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
إلى أن كثرة القتل توجد الرعب وشدة المهابة، وذلك يمنع من الجرأة والإقدام على ما لا ينبغي، ومن ثم أمر الله به .

وخلاصة ذلك — إن اتخاذ الأسرى إنما يكون خيراً ورحمة ومصالحة للبشر إذا كان الظهور والغلب لأهل الحق والعدل — ففي المعركة الواحدة ياتحانهم لأعدائهم من المشركين والمعتدين، وفي الحالة العامة التي تعم كل معركة وكل قتال؛ فيأتحانهم في الأرض بالقوة العامة والسلطان الذي يرهب الأعداء .

(تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) أى تريدون عرض الدنيا الفانى الزائل وهو المال الذى تأخذونه من الأسرى فداء لهم ، والله يريد لكم ثواب الآخرة الباقى بما يشرعه لكم من الأحكام الموصلة إليه مادتم تعملون بها ، ويدخل فى ذلك الاستعداد للقتال بقدر الاستطاعة إرادة الإثخان فى الأرض والسيادة فيها لإعلاء كلمة الحق وإقامة العدل .

وفى ذلك إنسكار لغمل وقع من جمهور المؤمنين على خلاف تلك القاعدة التى تقتضيها الحكمة والرحمة ، وما كان للنبي صلى الله عليه وسلم إقرار مثل هذا العمل ، ومن ثم عاتبهم الله على ما فعلوا بعد بيان سنة النبيين ، كما عاتب رسوله أيضا .
(والله عزيز حكيم) ومن ثم يجعل أولياءه يغلّبون أعداءه ويتمكنون منهم قتلا وأسرا ، ويطلق لهم أخذ الفداء ، ولكنه يؤخر ذلك إلى أن يكثرُوا ويعزوا ، ونحو الآية قوله : « **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** » .

ولا تتم لهم العزة إلا بتقديم الإثخان فى الأرض والسيادة فيها على المنافع العرضية بمثل فداء الأسرى من المشركين وهم فى عنفوان قوتهم وكثرتهم .
وعلى هذه القاعدة جرت الدول العسكرية فى العصر الحديث ، فإذا رأت من البلاد التى تحتلها أدنى بادرة من المقاومة بالقوة نكلت بأهلها أشد التنكيل ، فتحزب البلاد وتقتل الأبرياء مع المشاغبيين ، بل لا تتعفف من قتل النساء والأطفال بنيران المدافع وقذائف الطائرات والدبابات .

ولكن الإسلام - وهو دين الرحمة والعدل - لا يبيح شيئا من ذلك .
(لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) أى ولولا كتاب من الله سبق فى علمه الأزلئ ألا يعذبكم والرسول فيكم وأنتم تستغفرونه من ذنوبكم - لمسكم بسبب ما أخذتم من الفداء عذاب عظيم .

أخرج ابن المنذر عن نافع عن ابن عمر قال : « اختلف الناس فى أسارى بدر ، فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر ، فقال أبو بكر فادهم ، وقال عمر

أقتلهم ، فقال قائل أرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهدم الإسلام ويأمره أبو بكر بالفداء ، وقال قائل لو كان فيهم أبو عمر أو أخوه ما أمر بقتلهم .
 فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أبي بكر ففاداهم فنزل (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) فقال رسول الله : إن كاد ليأسنا في خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم ، ولو نزل العذاب ما أفلت إلا عمر .
 وبعد أن عاقبهم على أخذ الفداء أباح لهم أكل ما أخذوه ، وعده من جملة الغنائم التي أباحها لهم في أول السورة فقال :

(فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) أى فكلوا مما غنمتم من الفدية حال كونه حلالا بإحلاله لكم ، طيبا في نفسه لا خبث فيه مما حرم لذاته كالدم ولحم الخنزير .
 (واتقوا الله) فى أن تعودوا إلى أكل شيء من أموال الناس كفارا كانوا أو مؤمنين من قبل أن يحله لكم ربكم .

(إن الله غفور رحيم) أى إنه غفور لذنبكم بأخذ الفداء وإيثار جمهوركم لعرض الدنيا على ما يقتضيه إيثار الآخرة من طلب الإيخان أولا لإعزاز الحق وأهله بإذلال الشرك وكبت حزبه ، رحيم بكم إذ أباح لكم ما أخذتم ، وأباح لكم الانتفاع به .
 وخلاصة ما تقدم — إنه ليس من سنة الأنبياء ، ولا مما ينبغى لأحد منهم أن يكون له أسرى يفاديهم أو يمن عليهم إلا بعد أن يكون له الغلب والسلطان على أعدائه وأعداء الله الكافرين ، لئلا يفضى أخذه فداء الأسرى إلى ضعف المؤمنين وقوة أعدائهم وجرائتهم عليهم ، وما فعله المؤمنون من مفاداة أسرى بدر بالمال كان ذنبا سببه إرادة جمهورهم عرض الحياة الدنيا قبل الإيخان الذى تقتضيه الحكمة بإعلاء كلمة الله تعالى ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، ولولا كتاب من الله سبق من عدم عقابهم على ذنب أخذ الفداء قبل إذنه تعالى وعلى خلاف سنته — لمسهم عذاب عظيم فى أخذهم ذلك ، وإنه أحل لهم ما أخذوا وغفر لهم ذنبهم بأخذه قبل إحلاله لهم ، والله غفور رحيم .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى : إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيُعْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) .

المعنى الجملى

لما أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم الفداء من الأسرى شق عليهم أخذ أموالهم ، فأنزل الله هذه الآية استألة لهم وترغيباً في الإسلام بيان ما فيه من خيرى الدنيا والآخرة ، وتهديدا وإنذارا لهم ببقائهم على الكفر وخيانتة صلى الله عليه وسلم ، وبشارة للنبي صلى الله عليه وسلم ، بحسن العاقبة والظفر له ولمن تبعه من المؤمنين .

روى أن الآية نزلت في العباس وعقيل بن أبى طالب وتوفل بن الحرث ، وكان العباس أسيرا يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس ، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر ، فلم تبلغه النبوة حتى أسر ، فقال العباس : كنت مسلما إلا أنهم أكرهوني ، فقال عليه السلام : إن يكن ما تذكره حقا فالله يمجزيك ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، قال العباس فكلمت رسول الله أن يرد ذلك الذهب على فقال : أما شيء خرجت لتستعين به علينا فلا ، قال : وكلفنى الرسول فداء ابن أخى عقيل بن أبى طالب عشرين أوقية ، وفداء نوفل بن الحرث ، فقال العباس : تركتني يا محمد أتكف قريشا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين الذهب الذى دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها : لأدرى ما يصيبني ؟ فإن حدث بي حادث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل ، فقال العباس : وما يدريك ؟ قال أخبرني ربى ، قال فأنا أشهد أنك صادق ، وأن

لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله ، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ، ولقد دفعته إليها في سواد الليل ، ولقد كنت مرتابا في أمرك ، فأما إذ أخبرتنى بذلك فلا ريب . قال العباس : فأبدلنى الله خيرا من ذلك ، لى الآن عشرون عبدا ، وإن أدناهم ليضرب فى عشرين ألفا ، وأعطانى زمزم وما أحب أن لى بها جميع أموال مكة ؛ وأنا أنتظر المغفرة من ربى .

الإيضاح

(يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ، إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) أى قل للذين فى أيديكم من الأسرى الذين أخذتم منهم الفداء : إن كان الله تعالى يعلم أن فى قلوبكم الآن إيمانا أو سيظهر فى حينه - كما يدعى بعضكم - يعطكم إذ تسامون ما هو خير لكم مما أخذه المؤمنون منكم من الفداء بما تشاركونهم فى المغنم وغيرها من النعم التى وعد المؤمنون بها .

روى أبو الشيخ عن ابن عباس : أن العباس وأصحابه قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : آمنا بما جئت به ونشهد أنك رسول الله فنزل (إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا) الآية . (ويغفر لكم والله غفور رحيم) أى ويغفر لكم ما كان من الشرك وما استتبعه من السيئات والأوزار ، والله غفور لمن تاب من كفره وذنوبه ، رحيم بالمؤمنين فيشملهم بعنايته وتوفيقه ويعدّهم للسعادة فى الدنيا والآخرة .

وفى ذلك من الحض على الإسلام والدعوة إليه ما لا يخفى .

(وإن يريدوا حياتك فقد خانوا الله من قبل) أى وإن يريدوا حياتك بإظهار الميل إلى الإسلام والرغبة عن قتال المسلمين ، فلا تخف مما عسى أن يكون من حياتهم وعودتهم إلى القتال ، فإنهم قد خانوا الله من قبل ، ففقدوا الميثاق الذى أخذته على البشر بما أقامه على وحدانيته من الدلائل العقلية والكونية ، وبما آتاهم من العقل الذى يتدبرون به سنن الله فى خلقه .

(فأمكن منهم) يقال مكنته من الشيء وأمكنته منه : أى فكنتك أنت وصحبك منهم بنصرك عليهم بيدرمع التفاوت العظيم بين قوتك وقوتهم وعددك وعددهم ، وهكذا سيمكنتك ممن يخونونك من بعد .

(والله عليم حكيم) فهو يعلم ما ينتوونه وما يستحقونه من عقاب ، حكيم يفعل ما يفعل على حسب ما تقتضيه حكمته البالغة ، فينصر المؤمنين ويظهرهم على الكافرين ، وفي الآية من العبر :

(١) إنه يجب على المؤمنين ترغيب الأسرى في الإيمان ، وإنذارهم عاقبة الخيانة إذا ثبتوا على الكفر وعادوا إلى البغى والعدوان .

(٢) إن فيها بشارة للمؤمنين باستمرار النصر وحسن العاقبة في كل قتال يقع بينهم وبين المشركين ما داموا محافظين على أسباب النصر المادية والمعنوية التي عانت مما تقدم .

روى البخارى عن أنس « أن رجلا من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ترك فداء عمه العباس رضى الله عنه وكان في أسرى المشركين يوم بدر فقالوا : أئذن لنا فنترك لابن أختنا العباس فداءه (كانت جدته أنصارية) فقال صلى الله عليه وسلم : والله لاتدرون منه درهما .

وقد كان فداء الأسير أر بعين أوقية ذهباً ، فجعل على العباس مائة أوقية وعلى عقيل ثمانين ، فقال له العباس : الأقرابة صنعت هذا ؟ قال : فأنزل الله تعالى (يا أيها النبي قل لمن فى أيديكم من الأسرى ، إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم) الآية فقال العباس (بعد إسلامه) ورددت لو كان أخذ منى أضعافها لقوله تعالى (يؤتكم خيراً مما أخذ منكم) اه .

وبعد أن ذكر تلك القواعد الخاصة بالحرب والسلام وما يجب أن يعمل مع الأسرى ختم السورة بولاية المؤمنين بعضهم لبعض بمقتضى الإيمان والهجرة وما يلزم ذلك ،

وولاية الكافرين بعضهم لبعض ، ثم أمر بالمحافظة على العهود والمواثيق مع الكفار مادام العهد محفوظا غير منبوذ ولا منكوث فقال :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَانصَرُوا ، أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ، وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَانصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) .

المعنى الجملى

قسم الله المؤمنين أربعة أقسام ، وبين حكم كل منها ومترانته من بينها :

- (١) المهاجرون الأولون أصحاب الهجرة الأولى قبل غزوة بدر - إلى صلح الحديبية .
- (٢) الأنصار الذين كانوا بالمدينة وآووا النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين عند هجرتهم إليهم .
- (٣) المؤمنون الذين لم يهاجروا .
- (٤) المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية .

الإيضاح

(١) (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) أي هؤلاء الكلمة هم المؤمنون الذين هجروا أوطانهم فرارا بدينهم من فتنة المشركين إرضاء لهم ونصرا لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله : أي بذلوا الجهد بقدر الوسع ، واقتحموا المشاق .

أما ما كان من بذل الأموال فهو قسمان :

(أ) ما ينفق في التعاون والهجرة والدفاع عن دين الله ونصر دينه وحماية رسوله .

(ب) ما يكون بسخاء الأنفس بترك ما تركوه في أوطانهم عند خروجهم منها .

وما كان من بذل الأنفس فهو أيضا ضربان :

(أ) قتال الأعداء وعدم المبالاة بكثرة عددهم وعددهم .

(ب) ما يكون قبل القتال من احتمال المشاق ومغالبة الشدائد والصبر على

الاضطهاد والهجرة من البلاد ، وما يصحب ذلك من سغب وتعب ونحو ذلك .

(٢) (والذين آووا ونصروا) أي والذين آووا الرسول ومن هاجر من أصحابه

ونصروهم وآمنوهم من المخاوف ، فقد كانت يثرب ملجأ المهاجرين ، شاركهم أهلها

في أموالهم وآثروهم على أنفسهم وقاتلوا من قاتلهم وعادوا من عاداهم ، ومن جرّاء هذا

جعل الله حكمهم حكم المهاجرين في قوله :

(أولئك بعضهم أولياء بعض) أي يتولى بعضهم من الآخرين ما يتولونه

من أمر أنفسهم حين الحاجة إلى التعاون والتناصر في القتال وما يتعلق به من الفنائم

لأن حقوقهم ومراقبتهم مشتركة ، ويجب عليهم كفاية المحتاج ، وإغاثة المضطر منهم .

(٣) (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا)

الولاية بفتح الواو وكسرهما ، وقيل هي بالفتح خاصة بالنصرة والمعونة والنسب والدين ،

وبالكسر في الإمارة وتولى الأمور العامة ، لأنها من قبيل الصناعات والحرف ،

أى إن المؤمنين المقيمين فى أرض المشركين وتحت سلطانهم وحكمهم ، ودارهم دار حرب وشرك لا يثبت لهم شىء من ولاية المؤمنين الذين فى دار الإسلام ، إذ لا سبيل إلى نصر أولئك لهم .

أما من أسره الكفار من دار الإسلام فله حكم أهل هذه الدار ، ويجب على المسلمين السعى فى فكاهم بقدر ما يستطيعون من الحول والقوة ، بل يجب بذل هذه الحماية لأهل الذمة أيضا .

(وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى إنه لا ولاية لكم عليهم إلا إذا قاتلهم الكفار أو اضطهدوهم لأجل دينهم وطلبوا نصركم عليهم ، فعليكم أن تساعدوهم بشرط أن يكون الكفار حريين لا عهد بينكم وبينهم ، أما إن كانوا معاهدين فيجب الوفاء بهم ، ولا نباح خيانتهم وغدرهم بنقض العهود والمواثيق .

(والله بما تعملون بصير) فعليكم أن تقفوا عند حدوده ، وأن تراقبوه وتذكروا اطلاعه على أعمالكم ، وتتوخوا فيها الحق والعدل ؛ وتتقوا الهوى الذى يصد عن ذلك .

وبهذه المحافظة على العهود والمواثيق سرا وجهراً امتازت الشريعة الإسلامية على الشرائع الوضعية ، فشعار أهلها الوفاء بالعهود والبعد عن الخيانة والغدر .

وإن أعظم دول المدنية فى العصر الحاضر تنقض عهودها جهرة متى وجدت الفرصة سانحة ، ولا سيما عهودها للضعفاء ، وتتخذها خداعا مع الأقوياء ، وما أكثر ما تنقضها بالتأويل والتحايل فى التفسير إذا رأت فى ذلك مصلحتها ، حتى قال رئيس الدولة الألمانية : ما المعاهدات إلا قصاصات ورق ، وقال بسمارك أكبر ساسة هذه الدولة : المعاهدات حجة القوى على الضعيف ، وأبرع الساسة فى التقصى منها بالتأويل هم الإنكليز .

(والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) أى فى النصرة والتعاون على قتال

الشركيين ، فهم في جملتهم فريق واحد تجاه المسلمين : وإن كانوا شيئا يعادى بعضهم بعضا ، ولم يكن في الحجاز حين نزلت هذه السورة إلا المشركون واليهود ، وكان اليهود يتولون المشركين وينصرونهم على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ونقضوا العهود التي كانت بينه وبينهم فقاتلهم حتى أجلاهم من خير .

(إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) أى إن لم تفعلوا ما شرع لكم من ولاية بعضكم لبعض ، ومن تناصركم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم ، ومن الوفاء بالعهود والمواثيق مع الكفار إلى أن ينقضى عهدهم وينبذوه على سواء - يقع من الفتنة والفساد في الأرض ما فيه أعظم الضرر عليكم بتخاذلكم الذى يفضى إلى فشلكم وظفر الأعداء بكم واضطهادكم في دينكم بصدكم عنه كما وقع ذلك بضعفائكم بمكة قبل الهجرة . ثم فضل الله المهاجرين والأنصار على غيرهم فقال :

(والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) أى هؤلاء المهاجرون والأنصار هم المؤمنون حق الإيمان وأكمله دون من لم يهاجر وأقام بدار الشرك ولم يغز مع المسلمين عدوهم .

(لهم مغفرة ورزق كريم) أى لهم مغفرة تامة من ربهم تمحو ما فرط منهم من السيئات ، ورزق كريم في دار الجزاء ، لأنهم قد تركوا الأهل والوطن وبذلوا النفس والمال وأعرضوا عن سائر اللذات الجسمانية ، وعملوا ما يقربهم من ربهم في دار النعيم

(٤) (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) أى وهؤلاء الذين تأخر إيمانهم وهاجرتهم عن الهجرة الأولى وهاجروا وجاهدوا معكم أعداءكم - فأولئك منكم أى فيلتحقون بالمهاجرين الأولين والأنصار وبمسا تقدم من الولاية والجزاء .

وفي جعلهم منهم دليل على فضل السابقين على اللاحقين ، يرشد إلى ذلك قوله

تعالى « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى » وقوله : « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

ولا يخفى ما في الآية من ترغيب في الإيمان والمجرة .

(وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) أولو الأرحام : هم أصحاب القرباب ، والأرحام واحدها رحم (بزنة قُفْلٍ وَكَتِفٍ) وأصله رحم المرأة وهو موضع تكوين الولد ، سمي به الأقارب لأنهم من رحم واحد ، أي وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض وأحق من المهاجرين والأنصار الأجانب بالتعاون والتناصر ، وبالتوارث في دار الهجرة في ذلك العهد وفي كل عهد ، وقوله : في كتاب الله ، أي في حكمه الذي كتبه على عباده المؤمنين ، وأوجب به عليهم صلة الأرحام والوصية بالوالدين وذى القربى .

والخلاصة — إن القريب ذا الرحم أولى من غيره من المؤمنين بولاء قريبه وبرّه ، ومقدم عليه في جميع الولايات المتعلقة به كولاية النكاح وصلاة الجنازة وغيرها ، وإذا وجد قريب وبعيد يستحقان البر والصلة فالقريب أولى كما قال تعالى : « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلاهلك ، فإن فضل شيء عن أهلك فذى قرابتك ، فإن فضل عن ذى قرابتك شيء فهكذا وهكذا » ، أي فالمستحق من الأجانب .

(إن الله بكل شيء عليم) أي فهو سبحانه إنما شرع لكم هذه الأحكام في الولاية العامة والخاصة والعهود والمواثيق وصلة الأرحام وأحكام القتال والغنائم وسنن

التشريع والأحكام - عن علم واسع محيط بكل شيء من مصالحكم الدينية والدنيوية، ونحو الآية قوله: « وَاتَّقُوا جَنَّتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلَّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ » .
 زادنا الله علماً بفقهِ كتابه ، ووقفنا للعمل بأحكامه وآدابه ، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، إنه هو السميع الجيب .

موضوعات السور المكية والمدنية

تقدم أن قلنا في آخر سورة البقرة : إن أمهات المسائل التي ذكرت في السور المكية هي :

أصول الإيمان من الاعتقاد بوحداية الله والتصديق بالوحي والرسالة والبعث والجزاء ، وقصص الرسل مع أقوامهم ، ثم أصول التشريع العامة والآداب والفضائل الثابتة ، وجاء في أثناء ذلك محاجة المشركين ودعوتهم إلى الإيمان بتلك الأصول ودحض شبهاتهم وإبطال ضلالاتهم والنعي على خرافاتهم .

وأمهات ما جاء في السور المدنية - قواعد التشريع التفصيلية ، ومحاجة أهل الكتاب ببيان ما ضلوا فيه من هداية كتبهم ورسولهم ، فكثرت في سورة البقرة محاجة اليهود ، وكثرت في سورة آل عمران محاجة النصارى ، وكثرت في سورة المائدة محاجة الفريقين ، وكثرت في سورة النساء الأحكام المتعلقة بالمنافقين ، وكثرت في سورة التوبة فضأح المنافقين .

أهم ما تشتمل عليه سورة الأنفال من الأحكام

(١) تعليل أفعاله وأحكامه بمصالح الخلق كقوله : « وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ » وقوله : « وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ » .

(٢) كفاية الله تعالى رسوله مكر مشركي قريش في مكة حين اتهمهم على

حبسه طيلة حياته أو نفيه من بلده أو قتله كما قال سبحانه « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .

(٣) امتناع تعذيب المشركين ما دام الرسول فيهم كما قال : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » .

(٤) استغاثة الرسول ربه وإمداده بالملائكة كما قال : « إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبِّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ » .

(٥) كراهة مجادلة الرسول فيما يأمر به ويرغب فيه من أمور الدين ومصالح المسلمين بعد أن تبين لهم أنه الحق كما قال « يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » .

أما المجادلة والمراجعة في المصالح الحربية والسياسية قبل أن تبين الحق فيها فمحمودة، إذ بها تتم المشاورة التي عمل بها النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن كثيرة .

(٦) إن من شأن صادق الإيمان أن يتوكل على الله ، أى يكل إليه أمورهم وحده ، فلا يتكل على مخلوق مربوب خالق مثله ، فكل المخلوقات سواء في الخضوع لسننه ، ومن شأن المؤمن المتوكل أن يطلب كل شيء من سببه خضوعاً لسننه في نظام خلقه ، فإذا جهل الأسباب أو عجز عنها وكل أمره فيها إلى ربه داعياً أن يعلمه ما جهل منها ، وأن يسخر له ما عجز عنه من جماد وحيوان أو إنسان كما قال « وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » وبين فائدة ذلك بقوله « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

(٧) إن الظلم في الأمم يقتضى عقابها في الدنيا بالضعف والالتهال الذي قد يفضى إلى الزوال أو فقد الاستقلال ، وإن هذا العقاب يقع على الأمة بأسرها لا على مقترفي الظلم وحدهم كما قال : « وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمْتُمْ مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

(٨) إن الافتتان بالأموال والأولاد مدعاة لضروب من الفساد ، فإن حب المال والولد من العرائز التي يعرض للناس فيها الإسراف إذا لم تهذب بهدى الدين وحسن التربية والتعليم كما قال : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » .

(٩) إن تقوى الله في الأعمال العامة والخاصة تكسب صاحبها ملكة يفرق بها بين الحق والباطل والخير والشر كما قال : « نَبِّأَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ تَتَّبِعُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » .

(١٠) إن تغير أحوال الأمم وتنقلها في الأطوار من نعم إلى نقم أو بالعكس أثر طبيعي لتغيرها ما بأنفسها من العقائد والأخلاق والآداب « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرَ مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

(١١) وجوب إعداد الأمة بكل ما تستطيع من قوة لقتال أعدائها ، وذلك يشمل السلاح ، وهو يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، وقد كثرت أنواعه من برى وبحرى وهوائى ، ومرابطة الفرسان في تغور البلاد لإرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدى على الأمة ومصالحها أو على أفرادها « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » .

(١٢) تفضيل السلم على الحرب إذا جنح لها العدو ، لأن الحرب ضرورة من ضرورات الاجتماع تقدر بقدرها « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » .

(١٣) المحافظة على الوفاء بالعهد والميثاق في الحرب والسلم ، وتحريم الخيانة سرا وجهرا « وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النُّصْرَةُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ » .

(١٤) وجوب معاملة ناقضى العهد بالشدة التي يكونون بها عبرة ونكالا لغيرهم

تمنعهم من الجرأة والإقدام على العودة لمثل ذلك « فَأَمَّا تَشَقُّقَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّ كَرُونِ » .

(١٥) جعل الغاية من القتال الدينى حرية الدين ومنع الفتنة فيه حتى لا يرجع المشركون أحدا عن دينه « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

(١٦) اتقاء التنازع والتفرق حال القتال لأنه سبب الفشل وذهاب القوة « وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » ، وقد جرت على ذلك الدول في العصر الحديث ، فإنها تبطل تنازع الأحزاب زمن الحرب وتكتفى بالشورى العسكرية التي شرعها الإسلام وعمل بها النبي صلى الله عليه وسلم ، في غزوة بدر ، وفرضت عليه في غزوة أحد « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » .

(١٧) منع اتخاذ الأسرى ومفاداتهم بالمال في حال الضعف ، وجواز ذلك حين الإثخان في الأرض بالقوة والعزة والسيادة ، مع ترغيب الأسرى في الإيمان وإنذارهم أن يخونوا المسلمين بعد إطلاقهم بمن أو فداء .